

صورة الأنا في عيون الآخر

الجزائر في الرحلات التونسية خلال الربع الأول من القرن العشرين

مراد مزعاش* المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار * قسنطينة * الجزائر

Email: mouradski@yahoo.fr

Abstract

The study attempts to reveal the image of Algeria through eyes of the others which is revealed through the inspection, the revelations and the living achieved via the trips and tours of a number of Tunisian enlightened and intellectuals to Algeria who recorded what they observed in many fields at the level of man, place, movement, thought and religion ... Some of these were good and beautiful while others were bad and ugly as exposed by four trips to Algeria during close time periods.

Keywords: Trip - Traveler - Algeria - Tunisia - Ego - The other.

ملخص

يحاول الموضوع أن يكشف صورة الجزائر من خلال الآخر، الذي تجلت له من المعاينة والمكاشفة والمعايشة التي تحققت له من خلال الرحلات والجولات التي قام بها عدد من المتنورين والمثقفين التونسيين إلى الجزائر، وسجلوا ما لاحظوه في ميادين عديدة على مستوى الإنسان والمكان والحركة والفكر والدين... فكان منها الجميل الحسن، والقيح السيئ... وغير ذلك مما كشفتته أربع رحلات إلى الجزائر خلال فترات زمنية متقاربة.

الكلمات المفتاحية: الرحلة - الرحالة - الجزائر - تونس - الأنا - الآخر.

مدخل:

يطرح الموضوع صورة (الأنا) من منظور (الآخر)، وكيف تَمَثَّلَهَا في ذهنه وتَرْجَمَهَا في نَصِّهِ الرَّحْلِي، من خلال أربع رحلات متقاربة الزَّمن، قام بها علماء وأدباء وصحفيون تونسيون معروفون إلى الشَّيْقة الجزائر خلال الثَّلث الأول من القرن العشرين، والجزائر ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي.

وإذا كان لهذه الرِّحلات هدفاً موحداً تمثل في الإطلاع على أحوال الجزائريين وأوضاعهم الاجتماعية والسياسية والثقافية... فالحقيقة أنَّ منافذ اللِّقاء مع (الآخر) التونسي تنوعت بسبب الجوار الجغرافي، ممَّا سهَّل انتقال النَّاس عبر الحدود، فنشأت علاقة منفتحة توجي بعمق التَّمازج الحضاري. وإذا كان (الأنا) الجزائري في الرِّحلات هو الذي يختلف عن (الآخر)، فإنَّ (الأنا) أيضاً لا يعرف ذاته ونفسه إلَّا من خلال (الآخر). (فالآخر) يشكل مرآة عاكسة وصادقة في كثير من الأحيان للحياة في مختلف أوضاعها وعلى جميع المستويات، خاصة وأنَّ هذا (الآخر) الكاشف (للأنا) قريب ممَّا نلتقي معه في كثير من العناصر.

من هنا يمكن القول: إنَّ هذه الرِّحلات أتاحت لنا فرصة اكتشاف الذات والتَّعرف على أنفسنا، ونرى (الأنا) من خلال (الآخر) الذي نقل تلك الصُّورة، من خلال المعاشاة والنَّظر في مجالات متعددة امتدت عبر الزَّمان والمكان والإنسان والفكر.

أولاً: الرِّحلات ومصادرها:

1- التعريف بالرِّحلات:

هي أربع رحلات متقاربة الزَّمن قام بها علماء وأدباء وصحفيون تونسيون معروفون إلى الشَّيْقة الجزائر خلال الثَّلث الأول من القرن العشرين، والجزائر تعيش وطأة الاستعمار الفرنسي.

فقد عنونت الرِّحلة الأولى (الرِّحلة الجزائرية) وهي للشَّيخ محمد الخضر حسين، وقد نشرت سنة 1904م. وعنونت الرِّحلة الثَّانية أيضاً (الرِّحلة الجزائرية) وهي للشَّيخ أحمد حسين المهبيري، وقد نشرت سنة 1922م. أما الرِّحلة الثَّالثة فقد عنونت (شهران في عمالة قسنطينية) وهي للشَّاعر التونسي سعيد أبو بكر، وقد نشرت خلال سنوات

1927م/1928م/1929م. وأما الرابعة فقد عنونت (الجولة الجزائرية) وهي للشيخ الطيب بن عيسى، وقد نشرت خلال سنة 1927م.

2- مصادر الرحلات:

نشرت هذه الرحلات في المجلات والصحف التونسية الصادرة بين سنتي 1904م/1932م. وقد نشرت الرحلة الأولى بمجلة (السعادة العظمى)¹ سنة 1904م، ونشرت الرحلة الثانية بجريدة (العصر الحديث)² سنة 1922م، كما نشرت الرحلة الثالثة بجريدة (لسان الشعب)³ خلال سنوات 1927م/1928م/1929م. أما الرحلة الرابعة فقد نشرت بمجلة (الوزير)⁴ خلال سنة 1927م.

وقد قام الدكتور محمد صالح الجابري بجمعها من ورقات وصفحات تلك المجلات والجرائد وطبعها ونشرها في كتاب رفقة رحلة (جولة من التلال إلى الرمال) للشاعر الجزائري حمزة بوكوشة التي نشرت بمجلة (الوزير) التونسية سنة 1932م وقد صدرت جميعها في كتاب واحد بعنوان: خمس رحلات إلى الجزائر 1904م/1932م محمد الخضر حسين وآخرون⁵.

3- بواعث وأهداف الرحلات:

شغف الإنسان بالرحلة والأسفار والانتقال من مكان إلى آخر منذ القديم، وقد تعددت الدوافع واختلفت البواعث في ذلك⁶، فربما كانت الضرورة تجبر صاحبها على الترحال، هربا من ظلم أو حرب أو بحثا عن استقرار وأمن، أو تفتيش عن رزق ولقمة عيش لسد رمق الجوع والطوى... وقد يكون الدافع للترحال تلبية لنداء الواجب والقيام بالفرض الديني، لزيارة الأماكن المقدسة والحج. وقد كان طلب العلم باعثا آخر على الرحلة والتنقل، للتزود بالعلوم والثقافات في مراكزها عند أصحابها المختصين. وربما أيضا كانت التجارة والسياسة والسياحة... من الدوافع والبواعث الأساسية للرحلات...

¹- أول مجلة تصدر بتونس سنة 1904م

²- صدرت بمدينة صفاقس بتونس سنة 1920م وكانت توزع بالقطر الجزائري خاصة بالجنوب الشرقي.

³- صدرت بتونس سنة 1920م.

⁴- صدرت بتونس سنة 1920م.

⁵- صدر الكتاب ضمن سلسلة ارتياد الآفاق التي يشرف عليها نوري الجراح، وقد طبع بدار السويدي للنشر والتوزيع أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت لبنان، الطبعة الأولى 2004م.

⁶- أنظر مثلا نوال عبد الرحمن الشوايكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 19 هجري، الطبعة الأولى، دار المأمون للنشر والتوزيع عمان، وزارة الثقافة 2008م.

وإذا كانت رحلاتنا هذه قد حددت هدفا مشتركا تَمَثَّلُ في معرفة أوضاع وأحوال الجزائريين في مختلف مستوياتها؛ اجتماعيا وسياسيا وثقافيا واقتصاديا... فإنّ البواعث والدوافع اختلفت من رحالة إلى آخر، حيث حدّدها كل رحالة بما ذكرودون في ورقاته.

فالشَّيخ محمد خضر حسين الذي زار الجزائر سابقا، أراد أن يستدرك من الزيارة الأولى، وتحقيق أمنية دفينية في النفس، وهي الرغبة في زيارة مدينة الجزائر العاصمة، ومعرفة الحال العلمية التي هي عليها، يقول: (كنت أسعفت فيما سلف من الزّمان بإجراء سباحة في أطراف المملكة الجزائرية، وبقيت النَّفس مستشرفة إلى إعادتها تارة أخرى إلى مدينة الجزائر نفسها، لتكون على بينة من مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية وحلية من أمر أخلاق أهلها الغالبة، وعاداتها العامة فإنّ لسان العيان أفصح من لسان البيان، وما برحت هذه الأمنية تتمثل في الخيال وتجوّل في العقل حتّى مكنتنا الفرصة من توطيدها وإبرازها إلى حيز الوجود في شهر رمضان المعظم من هذه السّنة...)⁷.

أما أحمد حسين المهيري فيبدو من خلال الرحلة أنّه استعد لها جيدا من خلال الاتصال بالأحباب والأصدقاء في الجزائر لتهيئة ظروف الرحلة والتنقل والسّفر والإقامة، حتّى يتمكن من الاطّلاع الجيّد والمعرفة الشّاملة لأحوال القطر الجزائري فيتمكن من معاينتها وتسجيلها، ثمّ نقلها بأمانة وصدق إلى قراء جريدة (العصر الحديث)⁸. يقول المهيري: (منذ مدّة ونحن في غاية الشّوق إلى الإطّلاع على أحوال القطر الجزائري المجاور لمملكتنا⁹، إذ نرى من العار عدم الإطّلاع على أقرب الممالك الإسلامية إلينا، فعزمنا بحول الله سبحانه وتعالى أن نجري رحلة استكشافية، ونشر خلاصتها إلى قرائنا الكرام)¹⁰.

ورغم أنّ سعيد أبو بكر لم يُعدّ للرحلة ولم يتهيأ لها مسبقا إلّا أنّ وجوده بقرية غار الديماو¹¹ الحدودية كان دافعا قويا وسببا وجها لتحقيق رغبة طالما أراد تجسيدها في الواقع، وهي شوقه إلى مدينة قسنطينة الصامدة في وجه الاستعمار وغزوه الثقافي واللّغوي.

⁷ - خمس رحلات إلى الجزائر، ص 27. وقد قام الشَّيخ محمد خضر حسين برحلته في رمضان 1322هـ/ديسمبر 1904م.

⁸ - صدرت هذه الجريدة في مدينة سفاقص بتونس سنة 1920م.

⁹ - يقصد المملكة التونسية كما كانت تسمى آنذاك.

¹⁰ - خمس رحلات إلى الجزائر، ص 47.

¹¹ - قرية تونسية على الحدود الجزائرية.

فطالما سمع أنّ مدن الجزائر جميعها قد خضعت للتفرنس إلا مدينة قسنطينة فإنّها قد استعصت على ذلك، وحافظت على عروبته وإسلامها وشخصيتها، فكان ذلك حافزا قويا لشدّ الرّجال إلى هذه المدينة الصامدة، فليس الخبر كالعيان. يقول سعيد أبو بكر: (طالما كنت أسمع النّاس يتكلمون عن بلدان الجزائر، ويذكرون أنّها آيلة إلى التّفرنس لا محالة، وبعضهم يعمم والبعض الآخر يخصص ويحتج ببقاء مدينة قسنطينة على حالها، ولقد أصبحت من زمان بعيد أحمل بين جنبي قلبا يحب هاته المدينة الّتي حافظت على مدينتيّها العربية وقاومت التّفرنس. وكنت أترصد الفرص لزيارتها والاطّلاع عليها، إلى أن وجدت نفسي في أول الشّهر المنصرم في بلاد (غار الديماو) التّونسية الّتي هي آخر نقطة في بلادنا مما يلي جارتنا العزيزة الجزائر. هناك حدّثت نفسي بالتّماذي على السّفر إلى الشّقيقة، وصحّت عزيمتي على الذّهاب إلى قسنطينة قبل كل شيء)¹².

أما الطّيب بن عيسى فإنّ رحلاته إلى الجزائر تعددت وتنوعت غير أنّها لم تشف عليه وتروّ غليله، فأراد أخرى ليؤكد ما رآه سابقا وينقل ما استجد في القطر الجزائري، وما حصل فيه من تغييرات على المستويات الثّقافية والاقتصادية والاجتماعية... إلى قرّاء جريدته¹³ المتشوقين إلى معرفة أخبار القطر الشّقيق. يقول الطّيب بن عيسى عن ذلك: (رغبتنا تتجدد من حين إلى آخر فتدعونا إلى زيارة جارتنا وشقيقة تونس برحلة كبرى متسعة النّطاق... هذه الجولة لانغبن أهميتها بالتّظر إلى كونها ليست الأولى من نوعها، وأيضا لأنّها لم تحوجنا إلى المعلومات الأولى لمعرفتنا إيّاها قبلا، بل كان همّنا الاستحصال على الإفادات الثّانوية وما يوجد من الفروق والمميزات بين زمنين، غابرا وحاضرا من حيث الحركة الفكرية والنّهضة القومية)¹⁴.

ثانيا: تشكّل صورة الآن ومصادرها:

إذا كانت الرّحلة هي تلك الآثار الأدبية الّتي تنقل انطباعات الرّحالة عن تنقلاته وأسفاره، واصفا ما يراه ممّا يتصل بالبشر أخلاقهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية... ناقلا عن الطّبيعة والعمران... مسجّلا كل ذلك بدقة مفرقا بين ما شاهد ورأي، وما رُوي له وسمع... مستعينا في تشكّل صورة ذلك بعدد من المصادر تمثلت أساسا في ما رآه أو ما

¹² - خمس رحلات إلى الجزائر، ص 67/68.

¹³ - هي جريدة (الوزير)، التي صدرت في تونس الشّقيقة سنة 1920.

¹⁴ - خمس رحلات إلى الجزائر، ص 107.

سمع عنه من خلال ما حكى له وروي من أخبار، أو من خلال ما قرأ ممّا كتبه السّابِقون، أو من خلال ما عايشه في البيئات والمجتمعات التي مر بها¹⁵... والرحلات التي بين أيدينا تشكلت فيها صورة الأنا من خلال مصدرين هاميين لا يرتقي إليهما الشكّ مثلاً الرّافد الأساسي للرحالة في كل ما نقلوه عن الجزائر:

1- المشاهدة:

المرئيات والمشاهدات من أهم ما يقوم عليه الخطاب الرّحلي، باعتبارها العلامات التي تستقبلها عيون الرحالة المبصرة للمكان، تُحوّلها العين إلى إشارات يكون أثرها في النّفس أكبر ممّا تدل عليه العبارة¹⁶.

اعتمد الرحالة على المشاهدة في نقل الأخبار وتوثيق المعلومات، في وصف المجتمعات وتصوير الأماكن، فالرحالة (يعيد صياغة العالم المرئي بمعجم جديد يمزج فيه بين الحفر الأركيولوجي، والالتقاط المباشر، ونظراً لشساعة الفضاءات، يركز فيه الرحالة على الصّورة السّردية التي ترتكز أساساً على خلق لوحات مكونة من صورة ملتقطة بواسطة عين السّارد عبر صنعة بيانية للمسرد)¹⁷.

فيعطي من المصادقية للرحلة والنّص الرّحلي ما يجعلها موضع القبول باعتباره شاهد عيان على أحداثها وأخبارها. فالخطاب المرئي أهم ما يسترعي اهتمام السّامع أو القارئ، لأنّها دليل على المصادقية التي لا يرتقي إليها الشكّ والظنّ.

فقد نقل الشّيخ محمد الخضر حسين مشاهداته لمدينة باتنة¹⁸. ومدينة الجزائر¹⁹. ومشاهداته عن المكتبة العمومية التي حصلت له فيها²⁰.

¹⁵ - أنظر: حسين فهم، أدب الرحلات دراسة من منظور إثنوغرافي، عدد 138 سلسلة عالم المعرفة، مطابع الرسالة، الكويت 1994.

¹⁶ - أنظر: عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، دار السّويدي للنّشر والتّوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2017م، ص 486/485.

¹⁷ - عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن 19 مستويات السّرد، دار السّويدي للنّشر والتّوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، الأهلية للنّشر والتّوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى 2006.

¹⁸ - خمس رحلات إلى الجزائر، ص 33.

¹⁹ - المصدر نفسه، ص 34.

²⁰ - المصدر نفسه، ص 44.

وإذا عدنا إلى المهيري فقد سجل هو الآخر عددا من المشاهدات نقلها في رحلته، منها مشاهدته للمناظر والمزروعات على الطريق الرابط بين مدينتي مسكانة وعين البيضاء²¹. كما يرسم لنا صورة لشخصية الأمير خالد حين التقاه فرأى من خلقه وأخلاقه ما أثار الإعجاب²². ويحدد لنا معالم مدينة عين البيضاء وما حباها الله من مميزات أضفت عليها جمالا وطلاقة²³. كما ينقل مشاهدته لمدينة قسنطينة، وعلو جسورها الممتدة بين طرفي الوادي فوق الصّخور العميقة²⁴.

وإذا انتقلنا إلى صاحب الرحلة الثالثة سعيد أبو بكر الذي تعددت مشاهداته التي بدأها بمخاطبة قراء جريدته بما رأى وأبصر في الجزائر²⁵. ومما شاهدته مدينة قسنطينة حين لاحت له أنوارها من بعيد، وهو ينظر إليها من خلال نافذة عربة القطار²⁶. وما شاهدته حين تجوّل بها صباحا

وإذا عدنا إلى صاحب الرحلة الرابعة الطيّب بن عيسى، فعلى الرغم من قصرها وقلة عدد صفحاتها إلا أنها عامرة بالمشاهدات والمرئيات التي نقلها لقرائه، عن مدينة الجزائر العاصمة²⁷. ومشاهدته فيها لنادي التّرقى وإعجابه به أيما إعجاب²⁸.

2- المعايشة:

إذا كانت المشاهدة والمعاينة تشكل المصدر الأساسي في نقل الصورة، وتكوين الفكرة وقول الحقيقة، فإنّ المعايشة تكاد تكون المصدر الرئيس الذي يمد ويغذي المشاهدة. ذلك أنّ المعايشة التي تحصل للرحالة مع المجتمعات والأمم والأفراد الذين يمر بهم أو يقصدهم، أو يقيم بينهم حيناً من الدّهر، ممّا يفيد الرحالة في تشكيل صورة متكاملة متنزعة من الواقع، مسبوكة ممّا عاشه وعائشه فتفاعل معه سلباً أو إيجاباً ثمّ نقله إلى غيره مبرراً إعجابه وتقربه، أو نفوره وابتعاده .

²¹ - المصدر نفسه، ص52.

²² - خمس رحلات إلى الجزائر، ص53.

²³ - خمس رحلات إلى الجزائر، ص53.

²⁴ - المصدر نفسه، ص 57/56.

²⁵ - المصدر نفسه، ص67.

²⁶ - المصدر نفسه، ص70.

²⁷ - المصدر نفسه، ص110.

²⁸ - المصدر نفسه، ص111.

ورحالونا هم أقرب الناس إلى المجتمع الجزائري، عايشوه في كثير من الحالات والأوضاع قبل وأثناء وبعد الرحلة مشاركين له الفرح والانتصار، أو الألم والحزن والانكسار، فكانوا أكثر الناس قربا إليه ومعرفة به، لأنهم ساكنوه أرضه، وشاركوه طعامه، وجالسوه في فراشه... فكانت معرفتهم به مبنية على هذه المعيشة التي تأثروا بها فسجلوها ونقلوها في نصوصهم التي دونوها.

فقد نقل الشيخ محمد الخضر حسين بعضا مما عايشه حين التقى بكثير من العلماء والأدباء والمفكرين... المرموقين في المجتمع الجزائري بل وفي العالم العربي حين ذاك، وجلس إلى حلقاتهم العلمية وسمع دروسهم، وكان بينه وبينهم مطارحات ومناقشات وحوارات وتبادل أفكار وآراء، في مجالات مختلفة وموضوعات متعددة أدبية ولغوية ودينية ...

فقد عايش العلماء في دروسهم العلمية ومطارحاتهم.. في كل من مدن، سوق أهراس، وعين البيضاء، وقسنطينة، وباتنة، والجزائر العاصمة²⁹. فقد كانت المساجد عامرة بحلقات العلم يؤمها العلماء وتلاميذهم والمصلون. كما كانت المسامرات واللقاءات العلمية لها أماكنها المعلومة في بعض الدكاكين والبيوت يلتقي فيها صفوه نخبة المجتمع للمدرسة والمطارحة والنقاش في الموضوعات المختلفة³⁰.

كما ينقل لنا أحمد حسين المهيري ما عايشه في الجزائر مع علمائها وأدائها وعامتها، فقد اجتمع مع ثلة من علماء تبسة فوجدتهم من خيار القوم³¹، كما اجتمع بعدد من الأفاضل - عدد أسمائهم - أظهروا له البشاشة وحسن الإقبال³². كما اجتمع بعلماء وأدباء قسنطينة، وباتنة، وبسكرة، وسيدي عقبة، فكانوا جميعا ذوي كرم وأخلاق عالية وإحساسات راقية ولطافة زائدة³³.

²⁹ - المصدر نفسه، ص 28 إلى 44.

³⁰ - التقى الشيخ محمد الخضر حسين في رحلته بأكثر علماء الجزائر في تلك الفترة منهم: المفتي الحنفي الشيخ يوقندورة الشيخ عبد الحليم بن سماية، والشيخ محمد بن شنب، والشيخ عبد القادر المجاوي، والشيخ محمد بن مصطفى خوية، والشيخ مصطفى بن طالب، وبعض الأفاضل والأعيان وعددهم كبير.

³¹ - خمس رحلات إلى الجزائر، ص 51.

³² - المصدر نفسه، ص 51.

³³ - المصدر نفسه، ص 60/55.

أما الشاعر الصحفي سعيد أبو بكر فربما كان أكثر الرحالة معايشة للجزائريين مع تعدد رحلاته وتكرارها، وطول المكوث والاستقرار بين الجزائريين، فنقل لنا تلك المعايشة ابتداء من مدينة سوق أهراس التي لم يحس فيها بالفرق بينها وبين بقية البلاد التونسية³⁴. أو في مدينة قسنطينة التي وجد أنّ الطّباع الإسلامية متمكنة من أهلها، بل وامتد أثر ذلك إلى نفوس الأوربيين خاصة منهم الذين يحسنون اللغة العربية³⁵... فقد قضى أسبوعا كاملا مع شبّاهها النّاهض كما يقول³⁶. وينقل أيضا عن مدينة بسكرة التي وجد بها جماعة إصلاحية قوية³⁷ تعمل على القضاء على الخرافات التي انتشرت في المجتمع في ظل سيطرة أهل الزّوايا والطّرقية المنحرفين الذين عملوا على تكريس تلك الخرافات وتأسيس تلك الانحرافات.

كما أنّه أشاد بكثرة الأدباء والشّعراء وانتشار اللغة العربية وصحافتها في بسكرة. وغير ذلك ممّا راقه وأعجبه³⁸. وقد لاحظ ما هو قريب من ذلك في مدينة عنابة، وسوق أهراس، وتبسة، وعين البيضاء، وباتنة، وسيدي عقبة وغيرهم...³⁹

كما ينقل لنا الطّيب بن عيسى مثل سابقه، وكان قد زار الجزائر عددا من المرات عرف فيها المجتمع الجزائري عن قرب وكثب. فقد زار العديد من مدن الجزائر واتصل بكثير من علمائها وأدبائها وشعرائها وأصفيائها وأشرافها وساداتها وأفاضلها وعامتها، ممّا جعله يشكل تصورا عاما وخالصة شافية⁴⁰.

ثالثا: البيئّة المكانية والبشرية:

تقدم الرّحلة تصورا للمجتمعات التي زارها الرّحالة من خلال ما رأى أو عايش من عادات وأخلاق... كما تصف وتصور البلاد من خلال أماكنها تاريخيا وجغرافيا ودينيا... فيتأسس بناء النصّ الرّحلي بواسطة المكان والإنسان والمجتمع... الذي يتم تقديمه بوسائط

³⁴ - المصدر نفسه، ص 69.

³⁵ - المصدر نفسه، ص 71/70.

³⁶ - المصدر نفسه، ص 72.

³⁷ - المصدر نفسه، ص 73.

³⁸ - المصدر نفسه، ص 77.

³⁹ - خمس رحلات إلى الجزائر، ص 104.

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص 109.

عديدة⁴¹. فيتعاون الأنا والآخر على اكتشاف ما خفي، وإزاحة الحجب عما غمض بحكم العلاقة القائمة بين البيئة المكانية وما يقع فيها من أحداث ومجتمع وما تؤثر فيه من وقائع وشخصيات، (فوصف المكان يدل غالباً على أصحابه ويكشف عن بيئة هذه الشخصيات، ومظهرها العقلي والتفسي والاجتماعي)⁴².

وقد نقلت لنا رحلات هؤلاء الرحالة إلى الجزائر صورة لمختلف الأماكن التي مرّ بها الرحالة، وللمجتمع بشخصه وكيف تفاعلوا مع المكان والإنسان، وما هي الأشياء التي أثارت نفوسهم وحركت مشاعرهم، وبعثت عواطفهم وأثارت عقولهم ونهت مداركهم اتجاه هذه العناصر.

1- المدينة كبيئة مكانية:

أ- المدينة وصف عام:

شكلت المدينة أهم مقصد وغاية يتجه إليه الرحالة فهو المكان الذي يشهد مختلف الأحداث والتغيرات التي تطرأ على المجتمعات والأفراد. والمدن التي زارها الرحالة كثيرة وعديدة ومتنوعة، أبرز صفاتها أنها جميلة، شوارعها كبيرة فسيحة ونظيفة، مضاءة بالكهرباء ليلاً، تمتد وسط بنايات عظيمة غاية في التنسيق والتنظيم والزخرف والجمال.

بها ساحات وبساتين عمومية، تنتصب وسط بعضها نافورات للمياه⁴³، أو تماثيل لشخصيات استعمارية مثل مدينة بسكرة⁴⁴، ومدينة عنابة⁴⁵. ومقاهي ومطاعم عربية وفرنسية. ومدارس للتعليم، وكتاب لتحفيظ القرآن. ومستشفيات ومسارح مثل ما هو في مدينة قسنطينة⁴⁶ وباتنة⁴⁷، وفنادق وحانات، ومحاكم، ومراكز البريد، ومكتبات عمومية، مثل ما هو في مدينة الجزائر العاصمة⁴⁸، ونواحي⁴⁹، ومساجد⁵⁰، وأسواق عمومية، وعيون

⁴¹ - أنظر عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن 19 مستويات السرد، ص 353.

⁴² - بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، نشر وزارة الثقافة، عمان الأردن، سنة 2012م، ص 6.

⁴³ - المصدر نفسه، ص 111.

⁴⁴ - المصدر نفسه، ص 76.

⁴⁵ - المصدر نفسه، ص 86.

⁴⁶ - المصدر نفسه، ص 86.

⁴⁷ - المصدر نفسه، ص 100.

⁴⁸ - المصدر نفسه، ص 44.

⁴⁹ - المصدر نفسه، ص 110/111.

ومنابع للمياه العذبة... كما عدّد أصحاب الرّحلات عدد السّاكّنين لهذه المدن من الجزائريين والأوروبيين كالفرنسيين والأسبان والإيطاليين وغيرهم...

وما نستنتجه من المشاهدات والأوصاف التي قدمها لنا هؤلاء الرّحالة حول المدن الجزائرية التي زاروها في تلك الفترة، هو تميزها بعدد من الخصائص الطبيعية والبشرية منها:

ب- المدينة، الموقع والجغرافيا:

وهو الذي يعطيها من المنعة والحماية، لكونها على هضبة متوعرة، أو جبل عال، أو ممتدة في خليج بحر، أو محمية من واد سحيق، فتكتسب بذلك ميزة الجمال، وميزة الحماية الطّبيعية.

وربما كانت مدينة الجزائر صاحبة هذين الميزتين فقد وصفها الشّيخ محمد الخضر حسين بقوله: (أشرفنا على عاصمة الجزائر فتراءت لنا مصابيح أنوارها بمنظر أنيق، وأشكال متناسقة، وذلك لأنّ المدينة قائمة على أكمة مرتفعة يبتدئ العمران من أعلاها ثمّ يمتد متدلّيا إلى شافة البحر، فيبصر الدّاخل عند استقبال شوارعها المنورة، وهي طبقات بعضها فوق بعض رونقا مليحا)⁵¹.

أما مدينة تبسة فإنّها اكتسبت الحماية والحصانة من خلال السّور الذي يحيط بها من كل جانب، فقد وصفها أحمد حسين المهيري بقوله: (وقد دخلناها فألفيناها مدينة يحيط بها سور محكم البناء في غاية الارتفاع، يدل على مهرة البنائين الذين شادوه، وبالمدينة أربعة أبواب وبعض أثار رومانية ...)⁵².

أما سعيد أبو بكر فقد راح يتحدث عن مدينة تبسة أو (تيفست) العتيقة من خلال تاريخها منذ شهرتها في القرن الثالث قبل الميلاد وسقوطها في يد الرّومان، ثمّ الوصاية التّركية عليها، إلى أن احتلتها فرنسا سنة 1851م⁵³.

⁵⁰ - مدينة باتنة هي الوحيدة التي ذكر الرّحالة بأنّها لا يوجد بها مسجد.

⁵¹ - المصدر نفسه، ص 34.

⁵² - المصدر نفسه، ص 50.

⁵³ - المصدر نفسه، ص 90/89.

وهي اليوم (كلها تكاد تكون دارا محصنة بسور ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران وطوله من الشمال إلى الجنوب 320 مترا، ومن الشرق إلى الغرب 280 مترا. يمكن الدّخول إلى مدينة تبسة من أربعة أبواب: واحد من الشمال واسمه باب (الخدمة)، والثاني من الغرب واسمه باب (قسنطينة)، والثالث من الشرق واسمه باب (سلامبو)، وباب آخر من الجنوب لا أدري ما اسمه، ويمكننا أن نزيد عليها باب جديد فتح بعد استيلاء فرنسا عليها، ولو أنه أحقر من أن يذكر لكونه صغيرا جدا، وهو في الحقيقة أقرب من ثقب في السور منه إلى باب)⁵⁴.

أما مدينة قسنطينة فهي تقع على صخرة عظيمة مرتفعة في السماء، ما أعطاها حصانة طبيعية، وزاد في جمال تشكيلها. ينقل سعيد أبو بكر رؤيته لها فيقول: (وقربت من التّافذة⁵⁵ فإذا بي أبصر ألاف من الفوانيس الكهربائية ترسل إلينا أشعتها الضّئيلة من بعيد وهي على طبقات كثيرة، مرتفعة بعضها على بعض بين البناءات المرتفعة التي كانت تلوح إلينا عندما تنعكس عليها أشعة تلك الفوانيس فيتكون من مجموع ذلك إلى الرائي منظر جميل يتمنى الإنسان أن لا يحول عنه عينيه، تلك هي مدينة قسنطينة)⁵⁶.

أما حسين الميبري فإنّه يشير إلى بعض تضاريس مدينة قسنطينة بقوله: (ويوجد بمدينة قسنطينة واد عميق جدا، وخير مياهه يسمع بشدة قوية، وهو فاصل بين المحطة والمدينة، وعليه ثلاثة قناطر عظيمة، إحداها أمام محطة السّكة الحديدية، والثّانية بمكان يسمى باردو، والثّالثة مرتفعة على رأس جبلين متقابلين مربوطة بالسّلاسل الحديدية بغاية الإحكام)⁵⁷.

ومدينة بسكرة عند سعيد أبو بكر أنّ من يقيم فيها (يدرك أنّه في مدينة القبروان بالبلاد التّونسية لولا أنّ هناك تباينا قويا بينهما في هيئة البناء وفي بعض الأخلاق)⁵⁸. وهي عنده تبدو (بلاد جديدة تبعد عن بسكرة القديمة بما لا يزيد عن المليون تحيط بها أشجار النّخيل وتلال الرّمال والجبال، ويمر بجانبها وادي سيدي زرزور عند العامة ووادي بسكرة

⁵⁴ - المصدر نفسه، ص 90.

⁵⁵ - يقصد نافذة عربة القطار.

⁵⁶ - المصدر نفسه، ص 70.

⁵⁷ - المصدر نفسه، ص 70.

⁵⁸ - المصدر نفسه، ص 73.

عند طبقة المتنورين⁵⁹. ومثلها مدينة سيدي عقبة قرب بسكرة التي تشبه هي الأخرى بعض مدن القطر التونسي (والذي يدركه الإنسان من أول وهلة أنّ البلدة كلها مبنية من الطوب لا فرق بين البناءات الحقبية والعظيمة، ولا بين ذات الطابق أو الطابقين، وذلك لقلة وجود الحجر في تلك الجهات، فهي إذا مثل بلدة جمّال بالساحل التونسي قبل أن يكون لها معمل الياجور⁶⁰.

2- المقهى كبيئة مكانية: تكاد لا تخل مدينة من المدن التي زارها الرحالة صغيرة كانت أم كبيرة من وجود مقاهي، لأنّها من أهم الأمكنة التي يجتمع فيها الناس للحديث وتبادل الآراء، وممارسة بعض الألعاب، والترويح عن النفس، وأخذ قسط من الراحة وتمضية الوقت، مع ارتشاف مشروب منبه أو منعش، يبعث النشوة والشعور بالراحة والاطمئنان. والمقاهي في تلك الفترة على قسمين: مقاهي إفرنجية فرنسية، ومقاهي عربية. ولكل واحدة منها خصوصياتها وروادها مع اختلاف في الخدمات والمعاملات.

أ- المقاهي العربية: عددها كثير وروادها أكثر، فحين تجوّل سعيد أبو بكر في مدينة قسنطينة قال عن مقاهيها: (المقاهي الأوروبية كثيرة هناك، وأكثر منها المقاهي العربية التي لا تزال على نمط القديم، ولم يدخل عليها أدنى تغيير. فترى الناس فيها – أي المقاهي العربية – جالسين على حصير متسع يلوح عليه أنّه مصنوع خصيصا إليهم، وهم عاكفون على لعب (الديمينو) وربما لعبوا (الدّامة) في بعض الأحيان أو (النردشير) في بعض الجهات أمّا (الكارطة)⁶¹، فلم أرهم يستعملونها إلّا في المقاهي الإفرنجية، وهي نعمة نغبطهم عليها⁶². وعلى كثرتها وتعددتها جعله يصرح حين زار مدينة قلمة (ولقد خُيّل لي وأنا أتجول فيها عبارة عن حومة كبيرة ليس فيها إلّا المقاهي والمطابخ التي لا تحصى لكثرتها⁶³).

⁵⁹ - المصدر نفسه. - ص 73.

⁶⁰ - المصدر نفسه. - ص 101.

⁶¹ - يقصد لعبة الورق.

⁶² - المصدر نفسه. ص 70.

⁶³ - المصدر نفسه. ص 81.

والمقاهي العربية تكاد تكون على نمط وشكل واحد في كل المدن، فالمقاهي في مدينة بسكرة تكاد تكون مثلها في قسنطينة⁶⁴. وهذه الكثرة لعدد المقاهي جعلت سعيد أبو بكر يسجل ملاحظتين غاية في الأهمية:

الأولى: تكاد تكون الغاية الوحيدة لارتياح الناس للمقاهي هو تضييع الوقت ولعب الورق⁶⁵.

الثانية: أن الصغار لا يشتغلون بالمقاهي⁶⁶.

ب - **المقاهي الأوروبية**: أما المقاهي الأوروبية فإنه عادة ما يرتادها إضافة إلى الأوروبيين، الأعيان والسادة من الجزائريين⁶⁷. غير أن بعضها سجل الاستثناء فتكاد تكون عربية لروادها من العرب كما هو حال مقهى (الدوفينوا) بعنابة وهذا لحسن أخلاق صاحبها وميله الشديد إلى الجزائريين⁶⁸.

وتتجلى بعض العادات السيئة في بعض المقاهي الأوروبية مثل ما لاحظته في مقهى أوروبي بمدينة قسنطينة (لا يكاد يجلس الإنسان في المقهى الأوروبي حتى تحيط به جميع الكلاب التي أبصرته، وما أكثرها، فلا يكاد يأتي القرصون - النادل - بما يطلبه حتى تطول أعناق تلك الكلاب إلى الطاولة ولا تغادره إلا إذا من الله عليه بقدوم رجل آخر جلس في مكان آخر، وقد رأيتم لا يبخلون على تلك الحيوانات بكل ما يستغنون عليه من السكر. فاتخذتها عادة وأقبح بها من عادة)⁶⁹.

3- **البيئة السكانية**: وسكان المدن والبلدات خليط من الأهالي الجزائريين المسلمين وأوروبيين من مختلف الأعناس، أسبان وإيطاليين ويهود وغيرهم. ونسبهم تختلف من مدينة إلى أخرى.

فإذا كان الأوروبيون قد استأثروا بالمدن الكبيرة والمواقع الاستراتيجية فتكثر فيها أعدادهم، فالمدن والقرى الصغيرة فيها أغلبية من الجزائريين. فمدينة عين البيضاء مثلا الجالية الفرنسية بها قليلة⁷⁰، ومدينة البليدة أهلة بالمسلمين⁷¹، كما أن مدينة تبسة جل

64 - المصدر نفسه. ص 76.

65 - المصدر نفسه. ص 76.

66 - المصدر نفسه. ص 89.

67 - المصدر نفسه. ص 89.

68 - المصدر نفسه. ص 84.

69 - المصدر نفسه. ص 70/71.

70 - المصدر نفسه. ص 98.

سكانها من المسلمين أيضا⁷². لكن مدينة عنابة المسلمون بها قليلون جدا⁷³. أما مدينة الجزائر العاصمة فالعنصر العربي يمثل الثلث من عدد السكان أو أقل⁷⁴. أما مدينة سيدي عقبة فلا وجود للتصاري بهذه البلدة تماما إلا سائحين⁷⁵.

وهكذا ترى هذا التباين والاختلاف في عدد سكان المدن، ونسبة كل جنس فيما بين الأهالي والأوروبيين، سجلها الرحالة من خلال ملاحظاتهم، وتدقيقاتهم، ومعاشهم فيها ومشاهدتهم لأحوالها.

1- **المرأة:** لم يغفل الرحالة الحديث عن المرأة وإن كان مقتضبا موجزا، فسعيد أبو بكر مثلا وإن لجأ إلى المقارنة إلا أنه لم يستطع أن يعطينا صورة دقيقة وواضحة عن المرأة لأنه لم يرها. فقد أشار إلى ذلك مذكرا بصعوبة وصفها ووصف لباسها (أما المرأة القسنطينية، وكم كان بودي أن أقول كلمة عنها... إني لم أشاهدها طول المدة التي قضيتها في قسنطينة)⁷⁶. وعدم رؤيتها في تقديره دليل على احترام وتقديس الحجاب كثيرا، (وذلك دليل على كل حال يمكننا أن نعرف به أنهم يقدسون الحجاب أكثر منا، ولذلك فإنه يصعب علي أن أصفها أو أصف لباسها إلى القراء ليتسنى لهم أن يقابلوا بينها وبين المرأة التونسية)⁷⁷. غير أنه لجأ إلى المقارنة من خلال الفتيات الصغيرات اللواتي رآهن في الشارع (على أن الذي رأيته من الفتيات الصغيرات بالشوارع شبيه جدا من لباس فتيات المهدية، ولو أنه أكثر اهتماما وأقل نظافة)⁷⁸، فلباسهن شبيه بما هو في مدينة المهدية بالمملكة التونسية.

أما في مدينة عين البيضاء فإنه رأى كثرة النساء وهن منشغلات بالبيع والشراء في شوارع البلدة⁷⁹. وقد برر هذا الأمر بأن هذه المدينة من خصائصها انهماك الرجال من أهلها في الألعاب وتفويت مصالحهم الشخصية⁸⁰. مما ألجأ المرأة (فقامت لسد تلك الثلمة سعيا

⁷¹ - المصدر نفسه. ص 111.

⁷² - المصدر نفسه. ص 51.

⁷³ - المصدر نفسه. ص 86.

⁷⁴ - المصدر نفسه. ص 110.

⁷⁵ - المصدر نفسه. ص 104.

⁷⁶ - المصدر نفسه. ص 72.

⁷⁷ - المصدر نفسه. ص 72.

⁷⁸ - المصدر نفسه. ص 72.

⁷⁹ - المصدر نفسه. ص 95.

⁸⁰ - المصدر نفسه. ص 97.

وراء الحصول على القوت اليومي)⁸¹. وإذا كانت مدينة عين البيضاء (هي البلدة الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يشاهد فيها المرأة أكثر من غيرها)⁸². فإنها في المقابل (تختلف عن نساء المدن الجزائرية وحتى نساء العائلات الكبيرة في البلدة نفسها)⁸³. ومما يميز المرأة في هذه المدينة (كثرة الوشام التي الذي أثر على جمالها، وأفسد لها وجهها، رغم أنه يظهر عليه الذوق السليم ودقة الصناعة)⁸⁴.

وهناك مواضع تضع فيها المرأة الوشام، فأكثر ما يكون في خديها ثم جبينها أو ذقنها⁸⁵. وظاهرة الوشام لم تقتصر على المرأة البيضاء فقط، بل امتد تأثيرها إلى نساء الجاليات الأوروبية اللواتي يستعملونه لهم ولأولادهم⁸⁶.

وقد أرجع ظاهرة استعمالهم للوشام ربما كدليل على تمسكهم بأرضهم، خاصة وأن الصور التي ترسم على الأيدي غالبا ما ترمز لأدوات وآلات الفلاحة والزراعة⁸⁷.

كما أن صورة المرأة الجزائرية ليست دائما ناصعة إيجابية، لأن بعضهن قد لوثن تلك الصورة من خلال المواقف المخزية والمشينة، مثل تلك المرأة (التي تجنست وعائلتها بالجنسية الفرنسية، ثم غيرت من مظهرها فبدت وكأنها أوروبية من خلال اللغة التي تتحدثها، واللباس الذي ترتديه، وحتى من خلال المشية التي تمشيها، واستعمالها لكل المساحيق التي تستعملها المرأة الفرنسية فكأنها أوروبية لولا الاسم الذي تحمله (مدموزيل بلقاسم)⁸⁸ أي الأنسة بلقاسم.

أما عن المرأة الأوروبية فإنه قد رآها أيضا، وخاصة في مدينة عين البيضاء بكثرة، مع ما يصدر منها من طيش واستهتار ولا مبالاة، (أما النساء الفرنسيات فهن كثيرات في كل أيام الأسبوع ويظهر عليهن الطيش في كل مكان)⁸⁹.

⁸¹ - المصدر نفسه. ص 66/65.

⁸² - المصدر نفسه. ص 96.

⁸³ - المصدر نفسه. ص 96.

⁸⁴ - المصدر نفسه. ص 96.

⁸⁵ - المصدر نفسه. ص 96.

⁸⁶ - المصدر نفسه. ص 96.

⁸⁷ - المصدر نفسه. ص 96.

⁸⁸ - المصدر نفسه. ص 99/98. وكلمة مدموزيل فرنسية تعني: أنسة.

⁸⁹ - المصدر نفسه. ص 98.

رابعاً: النهضة الأدبية والعلمية:

إذا كانت بوادر النهضة تقاس بما للأمة من تعليم مزدهر وحركة أدبية نشيطة، وصحافة رائجة، وإذا كان هذا الأمر مفقود في بعض المدن كتبسة مثلاً⁹⁰. فإنّ مدناً أخرى بها نشاط لافت وحركة إصلاحية قوية عملها ظاهر للعيان، كما هو حال مدينة بسكرة⁹¹. فالأدباء والشعراء بها كثيرون، واللغة العربية جيدة الانتشار، والجرائد التونسية كثيرة الزواج حتى يخيّل إلى الناظر أنّه في أحد أحياء مدينة تونس⁹².
والنهضة الأدبية لا تقتصر على مدينة بسكرة فقط بل امتدت إلى مدن أخرى كقسنطينة، أو مدينة الجزائر العاصمة التي قال الطيّب بن عيسى عن حركتها الأدبية: (وحركة أدبية تماثل الموجودة بقسنطينة)⁹³. بل وتتعداها إلى النهضة السياسية التي لا توجد في سواها⁹⁴.

فقد تنبه الجزائريون إلى ضرورة النهضة وإلى ضرورة مضاعفة النشاط والأخذ بأسباب التغيير والانتقال بالوضع إلى الأفضل والأحسن، يقول عن ذلك الطيّب بن عيسى: (من جهة النهضة الفكرية فالجزائريون أخذوا في الانتباه بصفة عامة وتضاعف نشاطهم عن ذي قبل، ومهما وجدوا حيلة إلا استغلوها، ولا فرصة إلا اغتنموها لتحسين حالتهم الأدبية، والشّيء المسرّ هو أن عامتهم يتبعون خاصتهم المفكرة المخلصة، والتابعة الجديدة بالجزائر اقتبست من أبنائها الأوصاف الحميدة، كالشجاعة والصدق والإخلاص، ومن الغربيين الحزم والنشاط، وإذا قلنا الثابتة فلا نقصد جُلّها، بل نخبتها المفكرة فقط في حالها ومآلها)⁹⁵.

1- الشخصيات العلمية والأدبية:

لقد حرص الرّحالة على الالتقاء بأهم الشخصيات الفاعلة في المجتمع الجزائري خاصة منهم فئة المتنورين والمتعلمين من الأدباء والشعراء والعلماء والأعيان المتعطشين إلى النهضة والإصلاح والقيام على حال المجتمع وتغييرها نحو الأحسن، والارتقاء بالمجتمع إلى وضع

⁹⁰ - المصدر نفسه. ص 95.⁹¹ - المصدر نفسه. ص 75.⁹² - المصدر نفسه. ص 75.⁹³ - المصدر نفسه. ص 110.⁹⁴ - المصدر نفسه. ص 110.⁹⁵ - المصدر نفسه. ص 108/109.

أفضل ممّا هو عليه. ولهذا كان حرصهم أن يكون العمل الأول الذي يقومون به حين الدّخول إلى كل مدينة السّؤال والبحث عن هذه الفئة، واغتنام فرصة اللّقاء بها وتبادل الآراء والدّخول في حوارات ونقاشات معها، لمحاولة فهم الوضع الذي يعيشه المجتمع الجزائري على جميع الأصعدة وفي كل المستويات.

فقد حدّثنا الرّحالة عن لقاءاتهم بأهل العلم والأدب ومحاوالتهم معهم في موضوعات مختلفة، والإجابة عن كل ما يمثل انشغالا عندهم وعند تلاميذهم. فكان اللّقاء بهم في المساجد وحضور دروس وحلقات العلم⁹⁶، أو حضور تلك المسامرات الأدبية والعلمية التي كانت تقام في الدّكاكين أو في البيوتات⁹⁷.

وقد أحوالنا الرّحالة على كثير من هذه الشّخصيات العلمية والأدبية والسّياسية والاجتماعية ممّن التقوا بهم في رحلاتهم، هذه الشّخصيات كلّها إنّ لم يكن كلّها ممّن له الأثر الطّيب والبارز في تاريخ الجزائر وفي الحياة العامة للجزائريين من خلال الدّور العلمي والإصلاحي والسّياسي والاجتماعي الذي كانوا يقومون به...

ويُعدّ الشّيخ محمد الحضر حسين أكثر الرّحالة ذكرا ولقاء لهذه الشّخصيات الهامة والتي جاء على ذكرها في تقريره الرّحلي. ففي مدينة سوق أهراس التقى بالشّيخ محمد الصّالح بن الشّايب⁹⁸، وفي مدينة عين البيضاء التقى بالشّيخ محمد العربي بن قشوط، والشّيخ المسعود بن علي، والشّيخ أحمد بن ناجي⁹⁹، أما في مدينة قسنطينة فقد التقى عالم الجزائر أستاذ الشّيخ عبد الحميد ابن باديس صاحب النّزعة الإصلاحيّة والثّورية الشّيخ حمدان لونيسي، كما التقى بالشّيخ أحمد بن الحبيبات¹⁰⁰. وفي مدينة باتنة التقى بالأدبيين أحمد البوعوني وإبراهيم بن السّلي¹⁰¹.

أما مدينة الجزائر العاصمة فقد التقى فيها بصفوة علمائها الذين ذاع صيتهم وعُرف علمهم وشدّت الرّجال إلهم على كثرتهم، منهم الشّيخ بوقندورة المفتي الحنفي، والشّيخ عبد

⁹⁶ - المصدر نفسه. ص 28 إلى 32.

⁹⁷ - المصدر نفسه. ص 37.

⁹⁸ - المصدر نفسه. ص 28.

⁹⁹ - المصدر نفسه. ص 30.

¹⁰⁰ - المصدر نفسه. ص 31.

¹⁰¹ - المصدر نفسه. ص 33.

الحليم بن سماية، والشيخ محمد بن شنب، والشيخ عبد القادر المجاوي، والشيخ السعيد، والشيخ محمد بن مصطفى خوجة، والفاضل يوسف بن سماية، والفاضل علي بن الحداد وغيرهم¹⁰²...

أما حسين المهيري فقد التقى بالوطني المخلص المناضل والسياسي المحنك الأمير خالد¹⁰³.

كما التقى سعيد أبو بكر بشخصيات هامة أدبية وإصلاحية في مدينة بسكرة، وهم الشيخ الطيب العقبي، والشيخ الأمين العمودي، والشيخ محمد العيد آل خليفة¹⁰⁴. كما التقى بالشيخ عبد الرحمن اليعلاوي في مدينة عنابة وهو تونسي من أصول جزائرية نفته فرنسا إلى الجزائر¹⁰⁵.

2- المساجد والمدارس والكتاتيب: أ- المساجد:

يمثل المسجد القلب والمركز للمدينة العربية، وهو أهم منشأة دينية لها، خاصة وأن دوره يتعدى الشعائر الدينية المتمثلة في الصلوات، إلى مهام وخدمات دينية وتعليمية وثقافية واجتماعية وصحية. وقد تعدد المساجد في المدينة الواحدة، وتختلف من حيث الحجم والدور الذي يؤديه كل واحد منها وأثره في المجتمع...

وقد كان المسجد أهم مزار يقصده الرحالة، فالشيخ محمد الخضر حسين قد زار أكثر المساجد في المدن التي مر بها وإن تعددت، وحرص على حضور حلقات العلم بها، واللقاء بعلمائها ومحاورتهم وتبادل الآراء معهم في مختلف المسائل. فقد زار مسجد مدينة تبسة¹⁰⁶، ومسجد مدينة سوق أهراس¹⁰⁷، ومسجد مدينة عين البيضاء¹⁰⁸، ومساجد مدينة قسنطينة التي بها (ثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة: الجامع الكبير، والجامع الأخضر، والآخر يسمى

¹⁰² - المصدر نفسه. ص 37/36/35/34.

¹⁰³ - المصدر نفسه. ص 53.

¹⁰⁴ - المصدر نفسه. ص 73.

¹⁰⁵ - المصدر نفسه. ص 83.

¹⁰⁶ - المصدر نفسه. ص 30/29.

¹⁰⁷ - المصدر نفسه. ص 28.

¹⁰⁸ - المصدر نفسه. ص 28.

بجامع الكتّاني¹⁰⁹. كما زار مساجد مدينة الجزائر العاصمة التي تعددت، والتي منها (الجامع الجديد)¹¹⁰، و(الجامع الكبير)¹¹¹، ومسجد (سيدي محمد الشريف)¹¹²، وجامع (سيدي رمضان)¹¹³، والمسجد الذي أسسه السيد مصطفى بن الأكل¹¹⁴.

وقد زار حسين المهيري (المسجد الأعظم) بتبسة¹¹⁵، أما مدينة باتنة فقد لاحظ فيها (أنه لسوء الحظ لم يوجد بها مسجد للصلاة)¹¹⁶، لكنه رأى سعي الناس وعملهم على تأسيس مسجد بها (وقد شاهدنا إعلانات معلقة بجدرانها في حبّ السّكان على التّبرع لإقامة مسجد بها)¹¹⁷، ثمّ عقّب على ذلك السّعي بقوله: (ويا حبذا لو يتم ذلك)¹¹⁸.

كما زار سعيد أبو بكر (الجامع الأعظم) بمدينة وادي الرّناتي¹¹⁹، و(الجامع الأعظم)¹²⁰، بمدينة قالمة و(الجامع الأعظم)¹²¹، بمدينة عنابة، وجامع آخر صغير بمدينة بتبسة¹²²، و(الجامع العتيق) بمدينة سيدي عقبة¹²³.

وقد لاحظ أصحاب هذه الرّحلات أنّ هذه المساجد (في غاية النّظافة والحسن والبهجة)¹²⁴، وهي على قدر كبير من الجمال (مفروشة بالزّرابي الرّفيعه.. منيرة بالفوانيس

109 - المصدر نفسه. ص 31.

110 - المصدر نفسه. ص 34.

111 - المصدر نفسه. ص 35.

112 - المصدر نفسه. ص 37.

113 - المصدر نفسه. ص 38.

114 - المصدر نفسه. ص 40.

115 - المصدر نفسه. ص 50.

116 - المصدر نفسه. ص 58.

117 - المصدر نفسه. ص 58.

118 - المصدر نفسه. ص 58.

119 - المصدر نفسه. ص 80/79.

120 - المصدر نفسه. ص 82.

121 - المصدر نفسه. ص 85.

122 - المصدر نفسه. ص 95.

123 - المصدر نفسه. ص 102.

124 - المصدر نفسه. ص 51/50.

الكهربائية)¹²⁵. وبعض هذه المساجد بها مكتبات عمومية، فيها مختلف الكتب المطبوعة، خاصة منها الكتب الدينية المتعلقة بالفقه والتوحيد والحديث والتفسير وما يتعلق بها¹²⁶...

أما بيت الوضوء فهي في غاية النظافة كذلك، وأغلب المساجد تنقسم فيها (إلى ثلاثة أقسام، قسم بيوت الراحة، والثاني بيت الوضوء، والثالث بيت الاغتسال)¹²⁷. وقد يعمل في بعضها على تسخين الماء الخاص بالغسل¹²⁸.

وقد اتخذ بعض المساجد حدائق بجانب المسجد تكون تابعة له، فيها من الأشجار والأزهار والتّباتات، ما يريح النّفس ويبعث على البشاشة والفرح والاطمئنان، تكون منتزها للمصلين في زمني الرّبيع والصّيف خاصة¹²⁹. وقد يفتح المسجد للنّصارى لدخوله وزيارته، كما هو الحال في مدينة سيدي عقبة مع مسجدها العتيق¹³⁰.

ب- المدارس: لم تسجل الرّحلات كبير ملاحظات عن المدارس والتّعليم بالقطر الجزائري في تلك الفترة إمّا لقلتها وندرتها، أو عدم تعريج أصحاب الرّحلات عليها أو لانعدامها. وما ذكر لا يعدو أن يكون إشارات قليلة وبسيطة لا تعطينا صورة متكاملة عن مدارس التّعليم بأنواعها في تلك الفترة.

فالشّيخ محمد الخضر حسين تحدث عن مدرسة قسنطينة ومدرسة الجزائر العاصمة لتخريج القضاة والعدول، وتعليم الوطنيين العلوم العقلية والتّقليدية¹³¹.

وهي نفس الإشارة للطّيب بن عيسى حين قال: (بالجزائر بعض المدارس العليا لتخريج الحقوقيين والحكام الشّرعيين)¹³².

¹²⁵ - المصدر نفسه. ص 80 و ص 95.

¹²⁶ - المصدر نفسه. ص 31 و ص 95.

¹²⁷ - المصدر نفسه. ص 80 ، و ص 95.

¹²⁸ - المصدر نفسه. ص 95.

¹²⁹ - المصدر نفسه. ص 82.

¹³⁰ - المصدر نفسه. ص 102.

¹³¹ - المصدر نفسه. ص 31 ، و ص 71.

¹³² - المصدر نفسه. ص 111.

وما لفت انتباه سعيد أبو بكر هو ما رآه في مدينة قسنطينة في ذهاب وعودة التلاميذ إلى المدارس في ذلك التألف الحاصل بينهم سواء الجزائري واليهودي والأوروبي، دون أن تكون بينهم ضغينة أو عداوة¹³³.

ج - الكتابات: ونفس الملاحظة يمكن أن نجريها في الحديث عن الكتابات، فهي قليلة جدا وشبه منعدمة إلا ما كان من إشارات قليلة وكلمات يسيرة. فقد أشار سعيد أبو بكر إلى وجود الكُتّاب بجانب المسجد العتيق بمدينة سيدي عقبة لتحفيظ قراءة القرآن¹³⁴. أما حسين الميبري فقد لاحظ حين زار مدينة الشريعة (وجود كتابات لتعليم القرآن الكريم مع بعض العلوم العصرية والأناشيد الحماسية ومبادئ بعض العلوم والمتون، إلا أن الكتابات التي من هذا النوع الأخير قليلة جدا وتعوزها الأساليب العصرية مثل الأساليب الموجودة بالمدارس القرآنية التونسية)¹³⁵.

فالعالم في الكتابات الموجودة أنّها تسير على النمط العتيق، وأكثرها وجودا في البوادي، دون أن تطور من نفسها، ودون أن تتخذ الأساليب العصرية في التدريس والتحفيز، والالتفات إلى ضرورات العصر.

3- طرق وعادات علماء الجزائر في التدريس:

أ- طرقهم في التدريس:

التفت الرحالة خاصة منهم الشيخ محمد الخضر حسين إلى بعض الطرق التي كان يسلكها بعض العلماء الجزائريين في إلقاء الدروس والمواظع وتلقين بعض العلوم، خاصة في المساجد من بعض العلماء، رأى أنّها طرق مفيدة ونافعة ذات أثر إيجابي في تحصيل العلوم وإفهام الناس القضايا والمسائل التي تهمهم وتعينهم في حياتهم ومعاشهم دون الملل والسآمة، فهي تقوم على إلقاء الدرس (بطريقة مقتصدة خالية من التّطويل، بعيدة عن الاختصار¹³⁶. ممّا يكون له الأثر الطّيب على المتلقين. وممّا نقله عن الشيخ عبد القادر المجاوي مستحسننا الطريقة التي يدرس بها قوله: (نستحسن من دروس هذا الشيخ اقتصاره من كل فن على تقرير مسأله التي يشملها موضوعه وعدم خلط بعضها ببعض)¹³⁷. كما أنّ طريقته

¹³³ - المصدر نفسه. ص 71.

¹³⁴ - المصدر نفسه. ص 102.

¹³⁵ - المصدر نفسه. ص 52.

¹³⁶ - المصدر نفسه، ص 29.

¹³⁷ - المصدر نفسه، ص 37.

في التعامل مع تلاميذه يسلك فيها (طريقا وسطا لا ينحط من مكانة عزّة النفس، ولا يرتفع عن سماحة التّواضع)¹³⁸ ممّا فتح قلوب العامة والخاصة لحبه واحترامه وتقديره.

ب- **عاداتهم في التدريس:** وقد أخذ بعض العلماء عادات طيبة في التدريس لفت الرّحالة الانتباه إليها، خاصة ما كان منها في شهر رمضان بعد صلاة التّراويح في كل يوم جمعة توزع أجزاء من نسخ القرآن على الحاضرين للقراءة والمدارس فيها¹³⁹.

ومن عاداتهم أيضا في رمضان قراءة صحيح البخاري بإشراف شيخ عالم وإمام، (فوجدت العالم الشّيخ بوقندورة المفتي الحنفي جالسا في زاوية وحوله جماعة من الطّلبة على شكل دائرة يتناولون سرد صحيح الإمام البخاري واحد بعد واحد، والشّيخ مصغٍ إليهم، فإذا ناب أحدهم خطأ استرده إلى ما هو الصّواب، وهذه عاداتهم سائر أيام رمضان)¹⁴⁰.

4- الجمعيات والتّوادي:

أ- **الجمعيات** لم يكن للجمعيات والتّوادي في هذه الفترة من تاريخ الجزائر كبير وجود، ولم ينتبه الأهالي إلى دورهما المهم في المجتمع إلّا لاحقا، وعلى هذا الاعتبار لم يسجل الرّحالة إلّا إشارات قليلة عنها بما تراءى لهم منها.

فلم يرد الحديث عن الجمعيات إلّا في رحلة حسين المهيري الذي اجتمع بأعضاء الجمعية الخيرية بتبسة، حين مروره بها، والذين وصفهم بقوله: (فوجدناهم قائمين بأعمال البر والإحسان أتمّ القيام، الأمر الذي يوجب لهم الشّكر والثّناء)¹⁴¹. كما أشار أيضا إلى الجمعية الإسلامية بمدينة قسنطينة التي تملك مقرا فخما يتسع لعدد من القاعات والصّالات، وهي على أحكم نظام، وغاية في التّنظيم، حيث إنّ الجمعية تقوم بعدد الأعمال الخيرية تداوي على نفقتها، وتختن اليتامى مجانا¹⁴².

غير أنّه يعيب على الجمعية عدم اشتغالها بالتّعليم وفتح أقسام لذلك للقضاء على آفة الجهل والامية حيث يقول: (ولكن مع الأسف أنّا لم نجد بالجمعية محلا لمعالجة المرض

¹³⁸ - المصدر نفسه، ص38.

¹³⁹ - المصدر نفسه، ص31/30.

¹⁴⁰ - المصدر نفسه، ص35/34.

¹⁴¹ - المصدر نفسه، ص51.

¹⁴² - المصدر نفسه، ص55.

الأكبر الخطير مرض الجهل الفتاك، أي مدرسة علمية لبث نور العلوم والمعارف¹⁴³. ممّا جعلها محل انتقاد الأهالي الذين وجدهم (متعطشين للمدارس القرآنية ومنتقدين للجمعية الخيرية تهاونها في تعليم أبناء الفقراء، والحال أنّها في إمكانها تعليمهم)¹⁴⁴.

ب- التّوادي: وحال التّوادي هو حال الجمعيات في ندرتها وقلتها، وعدم التفات الأهالي إلى دورها وأهميتها. فقد ذكر سعيد أبو بكر نادين فقط رآها خلال رحلته إلى المدن التي مرّ بها. التّادي الأول بمدينة وادي زناتي، وهو نادي عربي فرنساوي، لم يذكر من أعماله ونشاطاته شيئا¹⁴⁵، والتّادي الثاني عربي وجده بمدينة قالملة. (وقالملة هي المدينة الثانية التي وجدت بها ناديا أهليا بعد وادي الزّناتي ولكنّ هناك فرقا شاسعا بين التّادين، كالفرق الظّاهر بين البلادين، نادي قالملة عصري بأتم معنى الكلمة، وكل ما فيه جديد ونظيف، وتظهر عليه آثار الاعتناء المتزايدة تضيئه الكهرباء، ويديره رجل نظيف على غاية من الأخلاق الكريمة)¹⁴⁶.

أما التّادي الذي لا يمكن أن يغفل عنه أحد للدور الذي أداه في التّاريخ السّياسي والاجتماعي والثّقافي للجزائر، وتاريخ الحركة الوطنية والإصلاحية على الخصوص، هو نادي التّرقّي الموجود بعاصمة الجزائر، وقد عرّج عليه الطّيب بن عيسى في رحلته وكتب عنه مبرزا دوره الحضاري وأثره الثّقافي، وامتداده الاجتماعي وموقعه الرّيادي، حتّى غدا مفخرة كلّ الجزائريين.

يقول الطّيب بن عيسى عنه: (وأحسن مظهر يدل على رقي ذوق الجزائري وكمال استعداداته إلى الأخذ بأسباب التّهوض هو تأسيسه لناد ضخم (نادي التّرقّي) ولا أبالغ إن قلت: لا نظير له بالشّمال الإفريقي على الإطلاق، وإن وجد فيكون ناديا فرنسويا لا وطنيا)¹⁴⁷، ويزيد على ذلك قائلا: (وهو فخر الشّبيبة ومظهر قابليتها للصّعود إلى أوج التّقدم، لأنّ التّادي ضمّ فيه نخبة الثّابتة وأهلها للتّضامن على إحياء لغة البلاد بالمحاضرات والمسامرات التي تلقى به من عظماء الرّجال في المواضيع المختلفة. ومنذ أمد قريب كان الجزائري يستبعد الإقدام على الخطابة بلغة الضّاد ارتجالا واليوم أصبح يخطب ويحاضر في محتشد

¹⁴³ - المصدر نفسه، ص 55.

¹⁴⁴ - المصدر نفسه، ص 56.

¹⁴⁵ - المصدر نفسه، ص 76.

¹⁴⁶ - المصدر نفسه، ص 81.

¹⁴⁷ - المصدر نفسه، ص 111.

عظيم بلا كلفة وبأقل تلعثم¹⁴⁸، والنّاس مقبلون عليه يدعمونه ماديًا ومعنويًا، فهو قبلتهم يقصدونه ويؤمونه في كل حين، حتّى ولائمهم وحفلاتهم الكبرى تقام فيه.

خامسًا: الجزائريون المستحسن والمستتهجن:

إنّ الصّورة التي رسمها الرّحالة عن الجزائر والجزائريين، والتي تكشف عن محدداتها تتوزع على شقين، شق مستحسن وآخر مستتهجن. وإذا دققنا النّظر في هذه الصّورة بشقيها نجد أنّ الرّحالة يرجع في حكمه أولاً إلى الخلفية الدّينية والثّقافية للرّحالة وللمجتمع، ثمّ إلى خلفية ما فعله المستعمر في المجتمع وما تركه من أثر.

1- المستحسن من خصال الجزائريين وصفاتهم:

لقد أجمعت الرّحلات على ذكر كثير من الصّفات والأخلاق الحسنة التي اتصف بها الجزائريون جاءوا على ذكرها في مشاهداتهم ومعايشتهم للجزائريين نوجزها في الصّفات التّالية:

فالجزائريون يغلب عليهم طابع التّدين¹⁴⁹ والتّمسك بأخلاق الإسلام وتعاليمه¹⁵⁰، حتّى انتقل تأثيرهم إلى بعض الأوروبيين الذين تخلّقوا بأخلاق الإسلام، كما هو حال أهل مدينة قسنطينة¹⁵¹. فأكثر سكان المدن التي مرّوا بها غاية في اللّطافة والكرامة الضّيف¹⁵²، وكلّهم فرح وسرور¹⁵³، وحفاوة ولطافة¹⁵⁴، ولهم من الأخلاق الكريمة والسّجايا الحميدة الرّاقية¹⁵⁵.

وقد أوجز كل هذه الصفات الرّحالة الطيّب بن عيسى في قوله عن الشّعب الجزائري: (فالأوصاف الحميدة المتأصلة فيه والتي سرت في عروقه سريان الدّم في مجاري الشّرايين قلّ أن توجد في شعب سواه، وأخصّها رسوخ عقيدتهم وتمكن ثقتهم في الله ومحافظتهم على

148 - المصدر نفسه، ص 111.

149 - المصدر نفسه، ص 57، وص 112.

150 - أشار الشيخ محمد الخضر حسين إلى حرص التجار على معرفة الحلال من الحرام في المعاملات التجارية، وتحري الشرع في كل منها.

151 - المصدر نفسه، ص 71.

152 - المصدر نفسه، ص 51.

153 - المصدر نفسه، ص 101.

154 - المصدر نفسه، ص 59.

155 - المصدر نفسه، ص 59/58.

تقاليدهم وعاداتهم المقتبسة من المدنية الأندلسية غالبا والتي تتفق تماما مع الحضارة الإسلامية¹⁵⁶.

بين الجزائر وتونس:

إنّ المقارنة بسيطة بين الشّعبين الجزائري والتّونسي في نظر الرّحالة، من خلال معاشتهم ومشاهداتهم للجزائريين جعلتهم لا يفرّقون بين الشّعبين، فقد صرّح سعيد أبو بكر أنّه ما كاد يصل إلى مدينة سوق أهراس بالجزائر حتّى خيّل إليه أنّه في محطة تونسية (وأخذت أدرك أنّنا شعب واحد، خلقنا واحدة، وعوائدنا واحدة، إلّا أشياء ثانوية هي أصغر من أن تعد وتحسب)¹⁵⁷.

وأكثر المدن الجزائرية الواقعة مع الحدود التّونسية أو القريبة منها بها تونسيين تجار وغير تجار، كمدينة سوق أهراس¹⁵⁸، ومدينة عنابة¹⁵⁹، ومدينة قسنطينة¹⁶⁰، حتّى إن كثيرا من التّجار التّونسيين (يفضّلون البقاء هناك على الرّجوع إلى بلدانهم)¹⁶¹ رغم ما يفرض عليهم من أداءات وغرامات لكونهم تجارا.

والجزائريون عموما وأهل قسنطينة على الخصوص (يقدرّون تونس ويحترمونها التّونسي، وينظرون إليه بعين الاعتبار)¹⁶².

2- المستهجن من خصال الجزائريين وصفاتهم:

ومثلما عدّد الرّحالة ما استحسّنه من صفات الجزائريين، عدّدوا أيضا المظاهر التي استهجنوها، خاصة تلك التي مست فئة الشّباب الجزائري ممّن ذابوا وانساقوا مع أخلاق الأوروبيين بدعوى الحرية والتقليد للآخر، فكانوا صورة سيئة شكلت منظرا سلبيًا ونقيصة في المجتمع الجزائري. وعلى العموم فقد ذكروا عددا من هذه الصّفات الدّميمة والمستهجنة، والتي لم تكن عامة لكل الشّعب الجزائري بل هي خاصة بفئة قليلة منه غير أنّها مع الأسف تشكل ظاهرة لافتة يمكن ملاحظتها، ولعلّ أهمها هي:

¹⁵⁶ - المصدر نفسه، ص 109.

¹⁵⁷ - المصدر نفسه، ص 69.

¹⁵⁸ - المصدر نفسه، ص 88.

¹⁵⁹ - المصدر نفسه، ص 86.

¹⁶⁰ - المصدر نفسه، ص 71.

¹⁶¹ - المصدر نفسه، ص 72.

¹⁶² - المصدر نفسه، ص 72.

أ- شرب الخمر: فالمدن التي زارها الرحالة تكثرت فيها الحانات وأماكن شرب الخمر، وهي من المفسدات التي نشرها المستعمر وعمّمها بين أبناء البلاد، فلا تخل مدينة من المدن من مظاهر شاربي الخمر.

فقد بات سعيد أبو بكر في خان (أهم ما فيه حانته التي كنت أراها ملأى بالمسلمين وهم يتناولون الخمر جماعات)¹⁶³، لكن الأمر الذي أستغربه الرحالة أنهم لم يحدثوا من البليلة والضوضاء والخصومة شيئا ممّا يحدث مع أمثالهم في تونس، فقد انصرفوا بعد السكر هادئين (وخرج الناس كلهم بدون أن يحملهم السكر إلى عمل ما يراه التونسيون كلهم عقب كل مجلس من هذا القبيل)¹⁶⁴.

ب - القمار: وقد انغمس الكثير أيضا في آفة القمار ضنّا منهم أنّه مجلبة للمال والربح السريع وتحقيق المتعة، فنسوا واجباتهم الأسرية والعائلية ونسوا معها واجبهم اتجاه الأمة كحمايتها والمحافظة على تماسكها، والتّهوض بها إلى مصاف الأمم المتقدمة، فراحوا يهدرون أوقاتهم ويضيعون أعمارهم من أجل متع زائفة وزعامات زائلة.

فقد وصف سعيد أبو بكر مدينة عين البيضاء (والأمر الذي من خصائص هذه البلدة هو انهماك أهلها في هاته الألعاب وتفويت مصالحهم الشخصية)¹⁶⁵، فكان كلّ همّهم هو اللعب والقمار والتّباهي في ذلك بانتصارات زائفة، حتّى صارت تلقب هذه المدينة (محط رجال أبطال الدّومينو)¹⁶⁶.

ج - البطالة والضياع: كثير من الشّباب لا حرفة له ولا عمل، ضائع بين الأزقة والدّروب، منغمسا في مهاوي الفساد والانحراف، وكثير منهم لجأ إلى الأعمال المهيينة التي لا تليق وكرامة الإنسان، فقد تأسف سعيد أبو بكر لهذه الظّاهرة وسط الشّباب (أمّا السّيء الذي يؤسف له عندهم أكثر ممّا يؤسف عندنا، فهو ضياع جانب مهم من الشّبيبة في الشّوارع والأزقة وكثرة اللّماعين)¹⁶⁷. فهم بين ضياع وعمل مهين.

¹⁶³ - المصدر نفسه، ص 87.

¹⁶⁴ - المصدر نفسه، ص 78.

¹⁶⁵ - المصدر نفسه، ص 95.

¹⁶⁶ - المصدر نفسه، ص 95.

¹⁶⁷ - المصدر نفسه، ص 71. واللّماعون: ماسحو الأحذية.

فمن لم يعمل في مسح الأحذية وتلميعها، لجأ إلى حمل أغراض الآخرين مقابل المال، وأكثر هؤلاء صغار بل صبية، والذين تجدهم في المحطات وأمام الفنادق وغيرها من الأماكن العمومية يعرضون خدماتهم على الزبائن، (وليس للأولاد الصغار من الأعمال إلا انتظار الأرتال والتّرقب إلى المسافرين ليحملوا لهم أدباشهم)¹⁶⁸.

نعم هي فئة قليلة لكنّها أساءت إلى الجماعة، انسأقت إلى الفساد واللّهو والفجور وغرتهم الدّنيا (إذ في الشّباب من غرتهم زخارف الحياة الدّنيا التي يضنّونها السّعادة عينها، والتّهضة نفسها مع ما فيها من عيوب، كشرب الخمر على قارعة الطّريق، والتّجّاهر بالمنكرات بدعوى الحرية، والانهماك في المفاصد كالقمار مظنة ربح الدّرهّم والدينار، إلى غير ذلك من الأمور، وأخصّها ارتكاب الفجور، ولا موجب يدعّوهم سوى التّقليد الأعمى)¹⁶⁹.

د - الفرّنة: ومما عابه الرّحالة على الجزائريين ظاهرة الفرّنة التي تكاد تكون عامة في جميع المدن وتشمل جميع شرائح المجتمع، والحقيقة أنّها أصبحت ملفتة للنّظر ممّا جعل سعيد أبو بكر يصفها بأنّها سيطرت على لسان كل النّاس صغارا وكبار¹⁷⁰.

فلا يكاد أحدهم ينطق حرفا واحدا بالعربية. وهذا ما تمثّل بجلاء في مدينة عنابة، فحين دخلها زائرا تفاجأ لسيطرة اللّسان الفرنسي وغياب اللّسان العربي فقال واصفا ذلك: (يكاد الإنسان يحس بأنّ الكتابة والقراءة العربية قد أصبحتا مفقودتين، ولقد يسهل على البعض من سكانها أن يعبر باللّغة الفرنسية عن مقصوده بصورة يستحيل عليه أدائها باللّغة العربية)¹⁷¹. رغم الجهود التي يبذلها بعض الأولياء في تعليم أبنائهم اللّغة العربية.

هـ - أهل الطرق: وقد صورت لنا الرّحلات جانبا مستهجنا في المجتمع الجزائري يتعلق بنفوذ أصحاب الطّرق الصّوفية والزّوايا المنحرفين عن جادة الحق وصحيح الدّين وحقيقة الفهم القويم فانغمس الكثير منهم في كثير من مظاهر الفساد، والبدع والخرافات التي يقومون على نشرها بين النّاس. فقد تعجب سعيد أبو بكر من نفوذهم وهاله الأمر لما رآه منهم في مدينة بسكرة وما يرتبط بها من جهات مع الطّاعة العمياء لمريديهم وأتباعهم حيث

¹⁶⁸ - المصدر نفسه، ص 78/ وص 82.

¹⁶⁹ - المصدر نفسه، ص 109.

¹⁷⁰ - المصدر نفسه، ص 69.

¹⁷¹ - المصدر نفسه، ص 84.

يقول: (لم أر نفوذا كنفوذ أصحاب الطّرق في هذه الجهات، ولم أر طاعة عمياء كطاعة المريدين إلى المشايخ)¹⁷².

ونفوذ أصحاب الطّرق جعل النّاس تتقرب إليهم بالهدايا والعطاءات، رغم الفقر والخصاصة، (وهذه الصّورة جعلت المشايخ أغنياء والسّواد الأعظم في فقر مدقع)¹⁷³. فقد سمع النّاس يرددون عن أحد مقدمي زواياهم حين مات خَلَف وراءه ثروة طائلة تقدر بالملايين من الفرنكات في ذلك الوقت¹⁷⁴. وهذه الطرق جماعات مختلفة متناحرة متصارعة فيما بينها بدت العداوة والبغضاء بين أتباعها، فلا يترشقون إلّا بالسّب واللّعن، مبغضين وكارهين كل من لا ينتسب إليهم ولا ينتهي إلى طريقهم.

والنّاس السّدج يعتقدون في أضرحة الأولياء والصّالحين، فقد سجّل لنا سعيد أبو بكر أيضا صورة ذلك الرّجل الذي ارتى على جدران ضريح وأخذ يقبلها بكل حرارة وشوق¹⁷⁵. كما أشار إلى أنّ هذه العدوى - عدوى الاعتقاد في الأضرحة - قد انتقلت حتّى إلى بعض الأوروبيين، وهذا ما لاحظته حين زار مدينة عنابة حيث ذكر أنّ شخصا يدعى (جان مانكا) وهو رجل أوروبي أثّرت فيه هذه العوائد حتّى أصبح يعتقد بقوة في الولي (سيدي بوحديد) حيث كان يزوره كل عام مرّة حاملا ديكا عظيما قربانا إليه فيذبّحه في الزاوية وي طرح ريشه فيها، وإن امتنع عن ذلك مرض وابتلي¹⁷⁶.

وبهذه الوسيلة أصبحت الزّوايا عبارة عن شركات ذات رأس مال كبير وشيوخها مستثمرون ناجحون تهافت عليهم الأموال والأرباح والفوائد العظيمة دون جهد أو عمل.

سادسا: جوانب اقتصادية وطبيعية:

1- الأسواق: السّوق مكان آخر لالتقاء النّاس واجتماعهم وتعاونهم وتبادلهم للأخبار والآراء، وهو مكان لتبادل المنافع وقضاء الحاجيات وتقديم الخدمات، من خلال البيع والشّراء، وتوفير الحاجيات والضّروريات التي يفتقدها الإنسان في بيئته أو المحل الذي وفد منه.

¹⁷² - المصدر نفسه، ص 74.

¹⁷³ - المصدر نفسه، ص 74.

¹⁷⁴ - المصدر نفسه، ص 74.

¹⁷⁵ - المصدر نفسه، ص 103.

¹⁷⁶ - المصدر نفسه، ص 104/103.

والسوق دليل رخاء وازدهار، ودليل حركة ونشاط المجتمع، كما أنه دليله على الرقي والرخاء الاقتصادي. ولا يستغن أي مجتمع أو مدينة عن السوق التي يقيمها على الأقل مرة في الأسبوع.

ففي مدينة تبسة مثلا يوجد بجنوبها (سوق واسع المساحة محكم البناء خصص نصفه لبيع الغلال والخضر، والنصف الآخر لبيع الحبوب، وحوله دكاكين لبيع البقول والفواكه)¹⁷⁷. وهذا السوق قار ويقام يوميا. أما السوق الأسبوعي فيقام في الساحة التي أمامه وقد أعدت لذلك (وموقع السوق المذكور بساحة كبيرة يقصدها أهل البوادي يوما في الأسبوع لبيعهم وشرائهم، وتلك المساحة عدّة دكاكين لبيع الحبوب والتّمر وغيره)¹⁷⁸... ولا تباع فيها الخضر والفواكه والحبوب والبقول والتّمر فقط، بل وتباع أيضا الحيوانات المختلفة في مكان في السوق الكبيرة أعدّ خصيصا لذلك.

والأسواق عموما قائمة على التنظيم، غير أنّ سوق عنابة أكثرها تنظيما وتنسيقا، تتوفر فيه كل الحاجيات وبأسعار معقولة وفي متناول الجميع خاصة الفقير، يقول سعيد أبو بكر: (وفي المدينة سوقان كبيران منظمان تنظيما عجيبا، أحدهما يطلقون عليه (سوق الخضرة)، وهو جميل جدا، ويزيده حسنا عرض الخضر والفواكه الذي يدل على ذوق حسن وتجلد غريب. والثاني يسمونه (السوق العربي) وهو عبارة عن سوق واسع جدا يحيط به برطال كبير من جميع جهاته التي جعلوا في كل واحدة منها بابا كبيرا. وهو من جهة ما يباع فيه أشبه بشيء (سوق النحاس) بتونس، ولكنّه يفوقه بالنظام والاتساع وغزارة الأشياء الموجودة فيه، وقد علمت أثناء تجولي فيه أنّ الإنسان الفقير يمكنه أن يكسو نفسه منه بما لا يزيد عن العشرين فرنكا داخل فيها لباس الرأس والساقين. وأما منظر هذا السوق من بعيد فهو مدهش لحسن شكله، ولوجود شرفات وقباب من الدّوق العربي الجميل، وحول هذا السوق يوجد التجار ومنهم التونسيون)¹⁷⁹.

2- الإنتاج الزراعي : تنقل الرحالة بين مناطق عديدة ومختلفة تخلتها الوهاد والجبال والسهول والمرتفعات والمنخفضات، فرأت أبصارهم تلك المساحات الشاسعة والأراضي

¹⁷⁷ - المصدر نفسه، ص 51.

¹⁷⁸ - المصدر نفسه، ص 52. وانظر أيضا ص 52/54/58.

¹⁷⁹ - المصدر نفسه، ص 85/86.

المترامية الأطراف، صالحة للزراعة يقوم على خدمتها وزراعتها الأهالي المتمسكين بها المحافظين عليها، كما هو حال أهالي مدينة عين البيضاء¹⁸⁰ ومدينة قروا¹⁸¹. وهي صالحة لزراعة مختلف المزروعات الفلاحية، فأراضي مدينة عين البيضاء مثلا تصلح لزراعة الحبوب¹⁸²، وفي مدينة بسكرة وسيدي عقبة أكثر ما يهتم أهلها بغراسة التّخيل¹⁸³. أما أراضي مدينة البليدة وقروا فهي خصبة جدا تزرع بها الكروم¹⁸⁴.

وليس معنى هذا أنّ كل الأراضي بيد الأهالي الجزائريين بل الكثير منها في يد الأوروبيين انتزعوها من الأهالي انتزاعا ووظفهم عندهم بأبخس الأثمان.

ونتيجة لتمسك الأهالي بأرضهم والقيام بخدمتها يكثر التّجار والفلاحون في المدن والقرى. أمّا الغلال التي تنتجها فمن الكثرة والوفرة والجودة ممّا لا يوجد له مثيل له في كثير من البلدان خاصة في الفصول الماطرة.

فالمهيري يصف غلال مدينة باتنة (وتوجد الغلال النّفيسة بها بكثرة، كالعنب والخوخ وغيرها، وغلالها أكبر حجما من غلال المملكة التونسية، والسّبب في ذلك كثرة العيون والأنهار العذبة بها)¹⁸⁵. كما ينقل أيضا عن مدينة سيدي عقبة ذات الأراضي الجيدة والخصبة والصّالحة للزراعة ونوعية الغلال التي تنتجها، بحيث إنّ (البطيخة الواحدة تصل عندهم إلى التسعين كيلو و(الحصة) إلى ثلاثة أرتال، ويصل طول الفول إلى خمسة وستين سنتيمتر)¹⁸⁶.

أما تمور مدينة بسكرة فإنّها من أجود التّمور وأحسنها، والتي لم ير مثلها في أي مكان، ومنها نوع لا يوجد إلّا في هذه المدينة، يقول عنها سعيد أبو بكر: (أمّا الحياة الفلاحية تكاد تنحصر في التّمر بجميع أنواعه، ولاسيما النّوع الذي يعبرون عنه بدقلة نور، ونوع آخر نسيت اسمه، ولا فائدة في أن أزيد عند التكلم عليه عن قولي إنّني لم أراه إلّا في تلك الجهات

¹⁸⁰ - المصدر نفسه، ص 96/68/52.

¹⁸¹ - المصدر نفسه، ص 113.

¹⁸² - المصدر نفسه، ص 54.

¹⁸³ - المصدر نفسه، ص 77 إلى 102.

¹⁸⁴ - المصدر نفسه، ص 113.

¹⁸⁵ - المصدر نفسه، ص 86.

¹⁸⁶ - المصدر نفسه، ص 102/101.

ويندر جدا أن يجد الأكل النّواة وسط التّمرة)¹⁸⁷. ومدينة بسكرة لا يوجد بها التّمر فقط بل بعض المزروعات والفواكه الأخرى، مثل بعض الحمضيات، فيها (وجود نوع من اللّيم يطلقون عليه اسم التّشينة وهو أقرب ما يقرب في طعمه إلى نوع اللّيم التّونسي يسمى في السّاحل لسان العصفور)¹⁸⁸.

وقد نقل لنا المهيري أيضا أسعار تلك المواد وغيرها مما رآه في الأسواق. فسعر لحم الضّأن - الخروف - الغالي مثلا يساوي 2.05 واللّيترة من الزّيت تساوي 3.05 إلى غير ذلك¹⁸⁹.

3- الموارد المائية: الماء من ضروريات الحياة للعيش والاستقرار، وأينما وجد الماء وجدت الحياة، ووجد الإنسان يتخذ لنفسه بجانبه مسكنا ومستقرا، فأقيمت التّجمعات وبنيت المدن وأسست الحضارات على ضفاف الأنهار والبحيرات ومنايع المياه، لأنّه يجلب المنافع الكثيرة للسّاكين ويسهل عليهم حياتهم ومعاشهم . ولم تعدم الرّحلات الحديث عن الماء وتواجده، إنّ قليلا أو كثيرا، في أكثر الأماكن والمناطق التي مروا بها.

ولعلّ أحمد حسين المهيري كان أكثر عناية من غيره بمصادر المياه والعيون الجارية في كل بلدة يمر بها في رحلته. فقد رأى في مدينة تبسة عينا عذبة جارية سائغة للشّارب¹⁹⁰. أما مدينة عين البيضاء فمياها عذبة سائغة وخفيفة عن المعدل¹⁹¹. غير أنّ مدينة سيدي عقبة الصحراوية المياه بها قليلة شحيحة¹⁹².

أما سعيد أبو بكر فقد لفت انتباهه وجود المياه الوفيرة في منطقة حارة كمدينة بسكرة، وهي دائمة الجريان متفرعة إلى عدد من الاتجاهات تسقي البساتين والنّخيل¹⁹³. كما رأى الطّيب بن عيسى أيضا وفرة المياه وغزارتها في مدينة البليدة¹⁹⁴، ومدينة قرواو¹⁹⁵، حيث تتدفق بشدة وغزارة في أكثر الأماكن .

¹⁸⁷ - المصدر نفسه، ص 77.

¹⁸⁸ - المصدر نفسه، ص 77.

¹⁸⁹ - المصدر نفسه، ص 54.

¹⁹⁰ - المصدر نفسه، ص 51.

¹⁹¹ - المصدر نفسه، ص 53.

¹⁹² - المصدر نفسه، ص 60.

¹⁹³ - المصدر نفسه، ص 77.

¹⁹⁴ - المصدر نفسه، ص 111.

4- المناخ؛

ومما أهتم به الرحالة المناخ، فذكروا الهواء من حيث طبيئته أو خبثه، وبدرجة الحرارة من حيث ارتفاعها واعتدالها، في أكثر المدن التي مروا بها. فأغلب المدن تمتاز ببرودة الطقس، كأنه - لمن لا يعرفها - طقس أوروبا.

فمدينة مسكنة مثلا التي رآها المهيري يقول عن مناخها: (وأما هواؤها فهو في غاية البرودة حتى إنه يخيل لمن لا يعرفها أنه في أوروبا)¹⁹⁶. وقال مثل ذلك في هواء مدينة قسنطينة: (وطقسها في غاية البرودة)¹⁹⁷، أما مدينة عين البيضاء عندها فتختلف قليلا بحيث (هواؤها معتدل ممزوج بالبرودة)¹⁹⁸. أما مدينة بسكرة بحكم موقعها في بوابة الصحراء فإن طقسها وهواءها يختلف كل الاختلاف، ومثلها مدينة سيدي عقبة القريبة منها، فرغم أنه حل بها بداية الصيف غير أن الحرارة شديدة بهما¹⁹⁹.

ويذكر سعيد أبو بكر أن المدينتين المذكورتين سياحيين بامتياز يؤمهما السواح من كل حذب وصوب وعليه (فأحسن أيامها في آخر الخريف وأول الشتاء)²⁰⁰ لاعتدال الجو ولطافة الحرارة.

خلاصة؛

استطاعت هذه الرحلات أن تعطي صورة شاملة لأكثر الجوانب المرتبطة بالجزائر والجزائريين في فترة زمنية معينة، شملت جوانب اقتصادية واجتماعية وثقافية وأدبية... فتعرف الجزائري على ما كانت عليه بلاده وشعبه وأرضه في تلك الفترة، وما هي المتغيرات التي حصلت بعد ذلك في المجتمع نحو الأفضل أو إلى الأسوأ على مستوى تلك الجوانب المتعددة التي أتت الرحالة على ذكرها. والقارئ لهذه الرحلات يمكنه أن يجري عدة مقارنات تتعلق بالجزائري ماضيا وحاضرا، الجزائري والتونسي وما يجمعهما أو يميز أحدهما عن الآخر، الجزائري والأوروبي، المرأة ماضيا وحاضرا، وكثيرا من المقارنات في مجالات عديدة تكشف لنا من خلال هذه الرحلات، مما يجعلنا نتعرف أكثر على أنفسنا (الأننا) من خلال

195 - المصدر نفسه، ص 113.

196 - المصدر نفسه، ص 52.

197 - المصدر نفسه، ص 57.

198 - المصدر نفسه، ص 53.

199 - المصدر نفسه، ص 101.

200 - المصدر نفسه، ص 77.

وصف (الآخر). بل نكاد نجزم أنّ هذه الرّحلات تشكّل وثيقة تاريخية هامة جاءت على رصد وتسجيل وتدوين كثير من الأحداث والقضايا والمسائل في ميادين ومجالات عديدة والتي جئنا على ذكرها من خلال العناصر السابقة.